## (٤)

## التسامح.. تلك القيمة الأخلاقية الكبرى وحدودها

إن التسامح هو القيمة الأخلاقية والدينية الكبرى التى نحن أحوج ما نكون إليها الآن فى هذه اللحظات التاريخية الفارقة فى تاريخ الأمة وربما فى تاريخ العالم. إن على كل الفرقاء فى عالمنا العربى والاسلامى الآن أن يعلوا المصلحة القومية العليا للأمة بشىء من التسامح مع الآخر، والتخلى عن التعصب الأعمى للفكرة أو للمبدأ أو للعقيدة التى يؤمنون بها، وليدرك كل الفرقاء والمتعصبين أن الحقيقة دائما حمالة أوجه، وأن الوجه الذى يتمترسون حوله باعتباره الحقيقة المطلقة ليس هو على الأقل كل الحقيقة. ومن ثم عليهم أن يحسنوا الاستماع إلى وجهة النظر الأخرى لعل فى الاستماع اليها والتسامح معها يكون حل المشكلة أو على الأقل يكون السبيل للتقارب أو للتعايش مع أصحابها، ففى التسامح وقبول التعايش مع الأخر أيا كانت أراؤه أو معتقداته تكون المواطنة الحقة ويكون جلاء الايمان بالتعددية التى فطرنا عليها الله وجعلها أساسا من أسس الحياة البشرية سياسية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية أو ابداعية.

إن تراثنا الحضارى يحضنا على هذه القيمة الإنسانية الكبرى؛ فمنذ جدى الأكبر بتاح حتب فى القرن السابع والعشرين قبل الميلاد لم يتوقف

دعاة التحضر والمدنية عن الدعوة إلى التسامح، فهاهو بتاح يدعو ابنه لأن يحسن الاستماع إلى الآخرين لأنه قد يجد الحكمة حتى لدى «عمال الطواحين»، كما دعت الفلسفات الهندية فى الشرق الأقصى، والمسيحية فى الشرق الأوسط إلى التسامح واللاعنف وعدم رد الأذى بالأذى.

أما عن التسامح فى الإسلام فحدث ولاحرج حيث الآيات القرآنية واضحة صريحة فى الدعوةإلى هذه القيمة الاسلامية الكبرى؛ «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» (الكهف ١٨)، «لكم دينكم ولى دين» (الكافرون ٦) «لاإكراه فى الدين» (البقرة ٢٥٦)، وقد أجمل القرآن ما ينبغى أن تكون عليه العلاقة بين البشر فى قوله تعالى «ياأيها الناس انا خلقانكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير» (الحجرات ١٣) وهى الوجه الآخر لقوله تعالى «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة» (هود ١١٨). والتسامح فى القرآن الكريم مساو للعفو وقرينه،وقد ذكرت كلمة العفو فى القرآن خمسة وثلاثون مرة وهى صفة من صفات الله أمر بها نبيه والمؤمنين؛ انظر إلى قوله تعالى عن نفسه: «ولقد عفا الله عنهم» (آل عمران ١٥٥)، «عفا الله عماسلف» (المائدة ٩٥)، وإلى قوله للرسول وللعباد «وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لايحب الظالمين» (الشورى ٤٠) وقوله أيضا «وليعفوا وليصفحوا» (النور ٢٢) و«وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم» (التغابن ١٤)، والتسامح والعفو هنا هما دعوة واضحة إلى الاحسان إلى الآخرين ومعاملتهم معاملة حسنة رغم ما قد يواجهوك به من عداوة؛ انظر إلى قوله تعالى: «وبشر المحسنين» (الحج ٣٧)، «وان الله لمع المحسنين» (العنكبوت ٦٩)، «ادفع

بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم» (فصلت ٣٤)، «ولاتجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن» (العنكبوت ٤٦)، «وقولوا للناس حسنا» (البقرة٨٣). ولقد لخص الرسول عليه الصلاة والسلام كل ذلك فى أحاديثه النبوية الشريفة التى جاء فى كثير منها قوله: «انما بعثت بالحنيفية السمحة» فكأن عصب الدين فى نظر الرسول الكريم هو السماحة والتساهل واليسر ومن ثم التسامح. وقد شارك الخلفاء الراشدون والفقهاء والصوفية،بل والمتكلمون والفلاسفة فى تدعيم هذه القيمة الاسلامية العظيمة والدعوة اليها والعمل بها؛ وليس هناك أبلغ فى التعبير عن ذلك من قول الإمام الشافعى: إن رأيى صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب. إذن فليس من الإسلام فى شىء ماناراه الآن على الساحة الاسلامية والعربية من التشدد والتعصب والغلو!! إن بعض الذين يأخذون الإسلام سندا لتشددهم وتعصبهم الأعمى ومعاداة لمجتمعهم وللمجتمعات الأخرى،إنما هم خارجون عن هذه الطبيعة السمحة للدين الإسلامى، وهم ليسوا دعاة له، بل هم خطر عليه وقدوة سيئة للعقيدة التى ادعوا الايمان بها، وهم بعيدون عن ادراك حقيقة الإسلام وسمو مبادئه التى تسعى لاحتضان كل البشر دون تفرقة ودون اقصاء.

أما الحضارة الغربية فهى منذ فجر تاريخها فى بلاد اليونان لديها الدعوة إلى التسامح كأحد القيم الأساسية للديموقراطية؛ وها هى خطبة بريكليس ـ الذى حكم آثينا القديمة فى أزهى عصورها ـ الجنائزية، تقدم الصورة الآرقى والأقوى للتسامح؛ انظرإليه وهو يقول: إن الفقر ليس حاجزا، بل يستطيع المرء مهما كان وضيعا أن يخدم وطنه وليست الحياة

العامة احتكارا أو وقفا على فئة من الناس... إننا فى معاملاتنا اليومية لايخامر الواحد منا شك فى أمانة الآخر وصدقه ولسنا نغضب من جيراننا إذا ماتصرفوا بالطريقة التى يرتضونها لأنفسهم ولسنا نزدرى الرجل الذى لايروق لنا ان كان رجلا لاضرر منه..، وقد جاءت كتابات أفلاطون على هيئة محاورات متعددة الأطراف تعبيرا عن روح التعددية فى الرأى والتسامح بين أصحابها بما فيهم أفلاطون نفسه، وقد أحيا فيها أفلاطون آراء السوفسطائيين رغم أنه كان كارها لها وشديد النقد لمعظمها مما يعبر عن ايمانه بأن الحقيقة حمالة أوجه، بل إنه انتقد بنفسه ما سبق أن أكده من أراء فى محاورة «بارمنيدس» ليؤكد أن كل الأفكار قابلة للنقد والتطوير حتى ولو سبق وأن قدمناها كحقائق مبرهن عليها!

ومن أفلاطون إلى جون لوك صاحب أول كتاب عن التسامح، إلى فولتير الذى قال بحق: إن التسامح ملازم لكينونتنا البشرية وأننا جميعا من نتاج الضعف فكلنا هشون وكلنا ميالون للخطأ ولذا دعونا نتسامح بعضنا البعض، ونتسامح بعضنا مع البعض بشكل متبادل، وهكذا كانت دعوة كل فلاسفة التنوير فى العصر الحديث. ومن هؤلاء إلى وايتهد الذى يرى ضرورة نشر روح التسامح على مستوى دولى من خلال تيسير الطواف حول العالم وتقصير المسافات المكانية والزمانية بين الشعوب حيث يساعد ذلك على الاعتراف بأن الأمم الأخرى ذات العادات المغايرة ليست أمما معادية بل هى من «عطايا الله». ان التسامح فى رأيه واجب ينبغى أن يعترف به كل رجل عاقل مما يسبب خصوبة التركيب الذى يتصف به العمل الحاضر وامكانيات التطور الأوسع التى يمكن أن يشتمل عليها المستقبل.

ومن كل هؤلاء إلى جون رولز الذى أكد فى كتابه «نظرية العدالة» أن المجتمع القائم على العدل يجب أن يكون متسامحا، وبناء عليه يجب التسامح مع المتعصب وإلا سيتحول المجتمع فى هذه الحالة إلى مجتمع متعصب وغير عادل. ولكن هذا التسامح مع المتعصبين ينبغى أن يكون بالقدر الذى لا يشكل خطورة على المجتمع القائم على التسامح ومؤسساته الاجتماعية.

ولعل فى رؤية رولز تلك ما يجيب على تساؤل كارل بوبر فى كتابه عن «المجتمع المفتوح وأعدائه»: هل ينبغى للمجتمع القائم على التسامح أن يجيز فكرة التعصب؟ وماذا لو كان التسامح عن الفعل سيدمر المجتمع؟! حيث إن التسامح الذى ندعو اليه ليس بلا حدود وليس تساهلا بلا نهاية وإنما ينبغى أن يكون مشروطا بالحفاظ على سلامة المجتمع وتماسك مؤسساته، فإن كان التعصب للفكرة أو للمعتقد أيا كان سيولد كراهية لدى أتباعه للمجتمع ولمؤسساته ويدفعهم للسلوك العدوانى تجاه الآخرين ومؤسسات المجتمع فإنه حينئذ سيفتقد المعنى؛ فالتسامح والتساهل يكون مع المتعصب لفكرته أيا كانت لكن دون أن يتحول من خلالها إلى عامل من عوامل السلوك الهدام تجاه الآخرين والمجتمع. فالحقيقة التى يشير إليها كل من بوبر ووايتهد وكذلك رولز رغم أنهم من دعاة التسامح هى: أن التسامح قد يولد مذهبا متشددا أصيلا! وهنا نقول أنه لو حدث هذا فإنه ينبغى مواجهته أولا بالفكر والحوار حتى نحول دون تحول هذا المذهب المتشدد شديد التعصب إلى أداة هدم وتدمير للمختلفين معه وللمجتمع ومؤسساته ككل. ولكن السؤال الصعب هنا هو: ماذا لو لم تجدى الحوارات ومحاولات الاقناع بالفكر والمنطق؟!

وللإجابة على هذا السؤال أقول، إنه على الرغم من أن التسامح قيمة انسانية ودينية كبرى دعت اليها معظم العقائد الدينية والنظم الأخلاقية فى الحضارات المختلفة إلا أنه ينبغى أن يكون مشروطا بعدم الخروج على القوانين المنظمة للحريات فى المجتمع الانسانى؛ فالتسامح والعفو والصفح ليس معناها أبدا السكوت على الغلو الفكرى أو العقائدى الذى يهدد حياة البشر وانجازاتهم الحضارية. لقد عانينا فى مصر حينما خُدع أهل بلدى الطيبين المسالمين وعلى رأسهم بعض النخب السياسية المثقفة فأعطوا أصواتهم بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م لجماعة تزيت بزى الإسلام السمح ورفعت شعارات براقة من قبيل «الإسلام هو الحل» و«نحمل الخير لمصر» فلم يجد المصريون منهم بعد ذلك إلا الاقصاء والتعصب الشديد لمصلحة الجماعة وتفضيلها واعلائها على مصلحة المجتمع، فكان ماكان حيث قامت عليهم ثورة شعبية عارمة فى ٣٠ يونية ٢٠١٣م ليكتشف المصريون بعدها السلوك شديد العدوانية الذى اتضح أنه هو منهجهم الحقيقى وظهر ذلك فى مظاهراتهم واعتصاماتهم المسلحة التى هددوا من خلالها بأنهم لو لم يعودوا إلى الحكم سيحرقون البلد بمؤسساتها وبأهلها! ولم يكتفوا بالخطاب العدوانى الشفهى بل بدأوا فعلا فى ممارسة الأعمال العدائية للشعب وحرق مؤسساته فى العاصمة ومختلف المدن وعواصم المحافظات، وقد غاب عنهم تماما فى هذه الممارسات العدائية أن مصر التى يحرقونها ويروعون أهلها هى وطنهم وأن هؤلاء الذين يروعونهم هم من كانوا قبل عام واحد، هم من أعطوهم الثقة وأوصلوهم إلى حكم البلاد!! وقد غاب عنهم كذلك الطبيعة المسالمة لمصر وشعبها الذى تبنى على مدار تاريخه الطويل التدين المعتدل، وأكد من خلال مؤسسة الأزهر وسطية الإسلام، ونبذ دوما أى

صورة من صور الغلو والتطرف والتعصب. وها هو الشعب وقد انتصر بثورته السلمية وبمساندة جيشه الذى هو جزء لايتجزأ من النسيج الوطنى المصرى.

ولعل الدرس المستفاد من تلك التجربة المصرية هو أن التسامح والتساهل ونبذ التعصب إنما هى قيمة ينبغى أن يتبناها الأفراد والمجتمعات مع كل صاحب رأى حر قابل للتطور والتعديل اذا ثبت خطأه، وليس مع كل صاحب فكر متحجر غير قابل للحوار والتعديل وغير قابل للتعايش مع الآخر. إن التسامح ينبغى أن يكون إذن مع كل صاحب رأى أو معتقد بشرط أن يكون مؤمنا بالحوار ولديه القابلية للتعايش مع الآخر وقبول التعددية، وليس مع المتعصب المتغطرس غير القابل لل حوار والرافض للتعايش السلمى مع الآخرين.